منذر أبو حاتم

أين ومتى..؟

كان وحيداً.. مثلَ نخلةٍ في الصحراء. قال لنفسه: «أشعر وكأنّ الريح تصفر في داخلي».

سار دون هدف. وجد نفسه قريباً من الجبل. سار صعوداً، ثم جلس على صخرة ناتئة. كانت السهول تمتدّ أمامه على مدّ البصر.. لم ينتبه إلى غياب المدينة. تساءل فجأة: «ما اليوم؟ ما التاريخ؟.. أين الشمس؟!».

انتبه برعبٍ إلى عدم وجود الشمس في السماء، مع أنّ الضوء الباهت يَغْمر كل شيء. انتبه برعبٍ أشدّ إلى عدم وجود ظلالٍ للأشياء.. أين ظلي؟ هل كُسفت الشمس؟ ولكنّ الكسوف لا يستمرّ كلّ هذا الوقت! أهو حلم سخيف؟ حاول أن يلتجئ إلى المنطق، لكنّ المنطق يرفض عدم وجود الشمس والظلال في النهار. إذن هذه مجرد تخيلات وأوهام. لكنه صرخ فجأة: «اللعنة.. أين الشمس؟!».

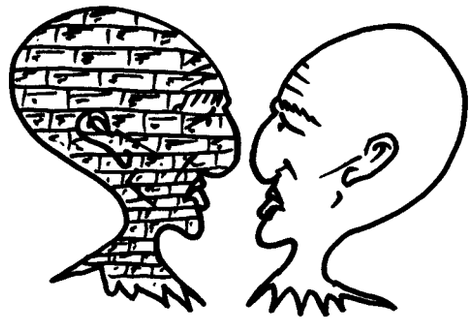

شعر بالبرد.. فقرر أن يسير. لا يهمّ الاتجاه.. المهم أن يسير. مشى مسافة طويلة.. طويلة جداً.. ليجد نفسه مرةً أخرى قرب الصخرة النائتة. ضحك وضرب كفاً بكف.. هل هذه هي الحلقة المفرغة؟ أم هي نظرية الكون الأحدب؟ كرّر جملته الأخيرة بشيء من الاقتناع.. هي نظرية الكون الأحدب.. ولكنْ ألم يجد هذا الكونُ الأحمقُ شخصاً غيري يمارس عليه تحدُّبَه وغباءه؟

شعر بالنعاس، نعاس ثقيل يشبه الخدر.. والبرد يزداد. شعر بأنه سيموت. تمدد إلى جانب الصخرة الناتئة وتساءل: «ربما كنتُ ميتاً فعلاً؟ نعم أنا ميت.. ميت بلا شك. أُحسّ بشيء من الراحة».. وهمس باسترخاء: «أريد أن أنام. أحيّاً كنتُ أم ميتاً، يجب أن أنام».

الخدر يزداد، وضبابٌ كثيفٌ يتجمع في رأسه المثقل. أَغْلق عينيه، فلم ينتبه إلى أنّ قدميْهِ تتحولان إلى حجريْن. ومالبث التحول أن امتدّ إلى الأعلى.. لم ينتبه إلا عندما حاول أن يرفع يده الحجرية ليتحسس جبهته المتجمدة. نظر إلى جسده الحجريّ. حاول أن يبتسم. لكنّ شفتيْه تحوّلتا إلى حجرين. ثم غاب كل شيء فجأة. واختفى صوتُ الريح. انتبه من شروده: كان يتّكئ على تمثالٍ حجريٍّ غريبِ الملامح، ويتمدد إلى جانب صخرة كأنها خنجر في خاصرة الجبل. تساءل، وهو يدقّق في ملامح وجه التمثال الحجريّ: «أين ومتى رأيتُ هذا الوجه؟.. أين ومتى؟».

عمّان